الفصل السابع :

فضل السبق للإسلام في حماية البيئة واستثمارها.

- فضل السبق للإسلام في حماية البيئة واستثمارها.
- الإنسان هو الملوث الأول للبيئة.
- أثر التلوث على عقل الإنسان.
- اهتمام العالم بالبيئة.
- ضرورة تغيير الاتجاهات العقلية نحو البيئة.

الفصل السابع :

فضل السبق للإسلام في حماية البيئة واستثمارها

لإسلامنا الحنيف فضل السبق في كثير من علوم العصر ، والتي يدعى الغرب ، كذبًا ، أنه مبتكرها . والإسلام لم يترك شيئًا في حياة الإنسان إلا نظمه وشرعه ووضحه . والمتأمل في التراث الإسلامي يلمس بكل وضوح مبلغ اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بكل ما يحفظ على الإنسان حياته ، ويكفل سلامته وسعادته واستقراره ورزقه وحمايته . فالتراث الإسلامي حافل بكل ما يحث على نشر الوعي البيئي وتنمية الضمير البيئي الحي والمحافظة على البيئة وعلى توازنها من التلوث وأخطار السموم والحشرات والجراثيم والأتربة والدخان والغبار والرذاذ والفضلات والنفايات وعوادم السيارات وفضلات النفط وغيره .

بل إن إسلامنا يدعونا للعناية بالبيئة وحسن رعايتها وتجميلها وتحسينها وتنقيتها والمحافظة على نظافتها وطهارتها وتوازنها والاستفادة من خيراتها وعدم الإساءة إليها . ذلك لأن في حياة البيئة حياة الإنسان . وللأسف الشديد أصبح إنسان اليوم هو الملوث الأول للبيئة وهو بذلك يقتل نفسه بيده دون وعي .

الإنسان هو الملوث الأول للبيئة:

تتنوع اعتداءات الإنسان على بيئته بأشكال وسلوكيات مختلفة وبذلك يقتل نفسه بنفسه ، من ذلك:

1) تلوث المياه ومجاريها العذبة بما في ذلك مياه البحار والأنهار والترع والرياحات والمحيطات والمياه الجوفية ومياه الأمطار ، مما يجعلها غير صالحة لاستعمال الإنسان

والحيوان والنبات والكائنات البحرية ويحدث ذلك عن طريق استنزاف كميات كبيرة من الأكسجين الذائب في المياه ، وزيادة معدلات المواد الكيميائية بالمياه ، مما يجعلها سامة لكافة الكائنات مع نمو البكتريا والطفيليات والأحياء الدقيقة الضارة ، وقلة الضوء المسلط على المياه . ويتم تلويث المياه عن طريق المخلفات الصناعية أو الصرف الصناعي وخلطها بمياه المجارى أو الصرف الصحي الآدمي أو الزراعي وعن طريق تسرب النفط إليها ، وملئها بالحشرات وبالمواد المشعة ، والمواد البلاستيكية والرصاص والزئبق والمنجنيز والفوسفات والكبريت ، إلى جانب عادات أهل الريف ، أو بعضهم ، في رمى جثث الحيوانات النافقة في المياه الجارية أو رمى المخلفات الزراعية فيها إلى جانب التبول والتبرز قريبًا من شواطئها .

2) تلوث الهواء وذلك عن طريق ملء الهواء بالبخار أو الضباب الأسود والغبار والأتربة والدخان والرذاذ والإشعاعات والضوضاء وامتلائه بالبكتريا والفطريات والجراثيم العالقة ونواتج عمليات الاحتراق ، وبالروائح الكريهة والأصوات العالية . ومن المؤسف أن معظم ملوثات البيئة هي من صنع الإنسان نفسه ، من ذلك وجود ثانى أكسيد الكربون ، والفلور ، والأزوت ، وأول أكسيد الكربون ، والفحم المتطاير . وقد يكون الدخان ملوثًا بالإشعاع أو ما يسمى باليورانيوم المنضب ويستعمل في الحروب القذرة . وقد نتساءل عن الأخطار الصحية الناجمة عن انتشار تلوث الهواء؟ من ذلك:

(1) زيادة معدلات الإصابة بأمراض الجهاز التنفسي .

(2) زيادة معدلات المواد المسببة للسرطان في الهواء .

(3) نقص مقدار الإضاءة الطبيعية .

(4) تأثير سلبي على النباتات وعلى المباني والمصانع وحتى الآثار والجبال والغابات والمحميات الطبيعية .

3) تلوث الأرض سواء سطحها أو داخل التربة ، ويحدث ذلك عن طريق نشر الفضلات الصلبة والكيماويات والمخلفات السائلة والمبيدات الحشرية غير الصالحة ، ونشر الفضلات أو النفايات ، حيث تتحول أكوامها إلى مرتع خصب لتربية الذباب والحشرات والقوارض والزواحف والجراثيم والأوبئة والروائح الكريهة . ومن أخطر

أنواع التلوث التلوث النفطي وكذلك التلوث عن طريق القمامة المنزلية . ومن أخطر مظاهر التلوث على صحة العمال تلوث مقار العمل من مصانع وشركات ووحدات إنتاجية ومراكز التدريب المهني .

4) التلوث عن طريق الضوضاء العالية أو المتقطعة ، ويؤثر على القدرة السمعية عند الإنسان ، ويؤدى إلى إرهاق الأعصاب ، وتشتيت الذهن ، وإعاقة الإنتاج ، والإصابة بالأمراض المختلفة .

5) الاعتداء على البيئة ومصادرها عن طريق الإسراف في استنزاف مواردها الطبيعية أزيد من اللازم ، ويشمل ذلك المياه والمراعى والأسماك وحتى تجريف التربة . وينجم ذلك عن إساءة استخدام الموارد الطبيعية والإسراف فيها أو إهمالها حتى تتلف أو الحرق أو تجفيف البحيرات والمسطحات المائية أو الاعتداء على الشعب المرجانية وعلى المحميات الطبيعية .

6) الإساءة للبيئة عن طريق توسيع دائرة التصحر ، هذا إلى جانب هطول الأمطار الحمضية وتآكل طبقة الأوزون . (القرضاوي ، يوسف ، 2001: ص 160) .

ويضع الدكتور القرضاوي مرجعًا رائدًا في بيان دور المشرع الإسلامي والهدى الإسلامي في المحافظة على البيئة ورعايتها وبيان فضلها ووجوب احترامها وحبها والعمل على تنميتها وتجميلها وتحسينها والاستمتاع بها وليس معاداتها وتخريبها .

أثر التلوث على عقل الإنسان:

والحقيقة أن تلوث البيئة Pollution قد أصبح في العصر الحديث ، مصدرًا من مصادر الإصابة بالاضطرابات العقلية Environmental etiologies فالبيئة من مسببات نشأة الأمراض والاضطرابات العقلية والنفسية والجسمية . من ذلك تعرض الإنسان للسموم Exposure to toxins سواء ما كان من ذلك في الهواء أو في المياه ، ويحدث ذلك في المؤسسات الصناعية وفي مجالات العمل مما يسبب كثيرًا من الأخطار Hazards للعمال وللناس عامة في الأماكن القريبة من مناطق العمل والإنتاج . ومن ذلك الجازولين . فانتشار الغازات Gases قد يؤدى إلى حدث اضطرابات في وظائف الدماغ Brain functions وتشمل هذه الوظائف العقلية التفكير والإدراك والتعلم والتذكر والتخيل والتصور والإبداع . وخاصة عندما تزيد معدلات انتشار هذه السموم عن الحد المسموح به عالميًا . من ذلك تسمم

الأوكسجين Oxygen intoxication عند استنشاق هواء ملوثًا Inhalation ، ويؤدى ذلك إلى تغيرات في الحالة المزاجية للفرد Mood changes حيث يقترب الإنسان من التهيج والإثارة والشعور بالدوار والدوخة . وقد يصاب الإنسان بفقدان الوعي . وهناك التسمم الناجم عن ثاني أكسيد الكربون Carbon dioxide intoxication وخاصة في حالة تركيز معدلاته في الهواء ، حيث تزداد معدلات التنفس لدى المريض Respiratiory rate وقد يصاحب ذلك الشعور بالصداع والخلط والتشويش الذهني .

وقد يحدث التلوث بالتسمم Carbon monoxide intoxication حيث يؤثر ذلك في دم المريض ، ويشعر المريض بالصداع والدوار والغثيان والقيء والدوخة وعتمة الرؤية Dimness of vision وقد يصاب المريض بالتقلصات وبزيادة التلوث قد يصاب المريض بفشل في التنفس ، وقد يؤدى ذلك لوفاة المريض . وفي حالات أخرى قد ينجم عن ذلك الإصابة بأعراض مرض باركنسون Parkinso's disease ومن أعراضه بطء الحركة والتبلد الانفعالي والاهتزاز والانطواء والاكتئاب وفقدان الذاكرة والصرع .

(طه ، فرج عبد القادر ، 1994: ص 712)

وتكون الآثار أشد خطورة في حالات المدخنين بغزارة ، وسكان المناطق الصناعية . ولذلك يعانون من نوبات من الاكتئاب والانسحاب والانطواء والبلادة ، ووجود عجز في قدرتهم على الإدراك الحسي ، وفقدان الذاكرة وفقدان الوعي بالاتجاه أو بالمكان إلى جانب المعاناة من العجز الحركي . **(Scully, J. H. and others, 1992 : 110)**

ويؤدى تعرض الإنسان للضباب أو البخار المملوء بالسموم Noxious vapors إلى كثير من الأعراض من بينها زيادة حدة الحركة والنشاط والتهيج وضعف في الذاكرة وضعف التركيز والنزوع نحو العدوان أو البلادة وغير ذلك من الأعراض الذهانية والشعور بالاضطهاد والهلاوس وهي مدركات حسية لا وجود لها في عالم الحقيقية والواقع . ويؤدى التعرض للمعادن الثقيلة Heavy metals لبعض المتاعب العقلية من ذلك التسمم بالرصاص Lead ويوجد الرصاص مع بعض الدهانات ، وقد يؤدى إلى الشعور بالتعب والإرهاق وفقدان الشهية ، والشعور ببعض الآلام في البطن ، ويؤدى الزئبق لكثير من المتاعب الصحية كالإسهال والنزيف الدموي ، وقد يصاب المريض بالأرق Insomnia والبلادة والاكتئاب

والخمول والانطواء والانسحاب والهلاوس إلى جانب بعض الأعراض الجسمية مثل: الأنيميا ، وارتفاع ضغط الدم ، والتهابات القولون ، وبعض أمراض الشبكية ، وتفكك الأسنان وفقدان الشهية العصبي Anorexia وهي حالة عقلية تدفع المريض إلى كراهية الطعام والعزوف عنه لأسباب نفسية وفي حالة الإصابة بـ Thallium وهو عنصر فلزى يشبه الرصاص ويشعر المريض بآلام في الرجل والإسهال والقئ والاكتئاب والشعور بالاضطهاد أو بالعظمة وخلل في الحركات وبعض نوبات من الصرع أو الإصابة بالعمى . وللمعادن الآتية بعض الأضرار العقلية والنفسية:

1) Manganese . المنجنيز وهو عنصر فلزى

2) Arsenic . الزرنيخ عنصر فلزى

3) Bismuth . وعنصر فلزى هو

(Scully, J. H. and others, 1992 : 111)

اهتمام العالم بالبيئة:

والحقيقة أنه منذ مطلع الستينات من القرن الماضي بدأ ظهور فرع جديد من فروع علم النفس التطبيقي هو علم النفس البيئي Environmental psychology ووجه اهتمامه نحو العلاقة بين الإنسان والبيئة الفيزيقية أو المادية أو الجغرافية التي يعيش في وسطها الناس والتي يتأثرون بها بالقطع في نموهم وشخصياتهم وسلوكهم وحالتهم الصحية والمزاجية والعقلية والنفسية Physical environment ويشمل ذلك مظاهر البيئة الطبيعية وتلك التي هي من صنع الإنسان كالمباني الشاهقة أو الضيقة أو الصحية ، ولها جميعًا تأثيرات Impacts إما إيجابية أو سلبية على صحة الإنسان وعلى سلوكه وتفكيره وشخصيته . ومن ذلك أيضًا الزحام الشديد وتأثيره ، ومن ذلك عدم ملائمة الإضاءة Inadequate illumination والتي تؤثر على قوة الإبصار Eyesight وخاصة في الأعمال الدقيقة أو في القراءة والكتابة وأعمال الحسابات فضلاً عن الشعور بالضيق والقلق والضغط Distress والبريق الزائد High glare والعتمة Deim وضعف الإضاءة الطبيعية يؤثر في إنتاج العامل وفي حالته المزاجية .

وبالطبع تختلف الإضاءة باختلاف الأعمال ، وباختلاف سن العامل . ويتعين أن تكون الإضاءة موزعة توزيعًا عادلاً على كل مكان العمل ، بسبب ميل العين للحركة . ويؤدى سوء

الإضاءة إلى تورط العمال في حوادث العمل وإصاباته وإلى تدمير الآلات والماكينات . ومن العوامل البيئية كذلك انتشار الضوضاء Noise وتشير الإحصاءات الأمريكية إلى ارتفاع معدلات الضوضاء في العشر سنوات الماضية بنسبة 11٪ ويتوقع الباحثون ارتفاع معدلات التلوث بالضوضاء في السنوات المقبلة Noise pollution هذا إذا لم تتدخل الدول للحد من خطورة الضوضاء العالية والمزعجة . ومعروف أن الضوضاء تسبب النرفزة والعصبية والتهيج وعدم الراحة أو الهدوء ، وتعوق نوم الإنسان وراحته إلى جانب فقدان القدرة على السمع Hearing loss وهي من الأخطار البيئة المنتشرة Hazards وتظهر في العمل في مجال الطيران وفي أعمال الأساس وكذلك في الغزل والنسيج وأعمال الحدادة والخراطة والسباكة والحديد والصلب Foundry and textile . وتؤدى الإصابة بفقدان السمع أو ضعفه إلى مطالبة العمال الشركات والمؤسسات بالملايين على سبيل التعويض في كل عام . والضوضاء تهدد سمع الإنسان ، وخاصة إذا استمر سماع الإنسان للضوضاء لفترات طويلة ، حيث قد يؤدى إلى فقدان السمع Hearing loss or deafness . وتحدد قوانين العمل ، في بعض المجتمعات ، حدود الضوضاء المسموح بها للعامل في اليوم الواحد . وتؤدى الضوضاء إلى أضرار في مجارى الدم Blood vessels مع تغيرات في معدلات ضربات القلب Heart rates وفي إنسان العين Eye pupil وبعض هذه التغيرات تستمر حتى بعد توقف مصدر الضوضاء ، مما يؤثر على امتدادات الدم لأعضاء الجسم ، والتعرض لضوضاء مستمرة وعالية Loud noise يؤدى إلى الإصابة بضغط الدم المرتفع High blood pressure وإلى التوتر العضلي Muscle tension وتؤدى إلى الشعور بالضغط والمتاعب الانفعالية كالعدوان وعدم الثقة والتهيج وتسبب عدم الشعور بالرضا عن العمل .

وفي دراسة ميدانية أمريكية اشتكى نصف العاملين في أحد المكاتب من زيادة الضوضاء . والضوضاء الفجائية والمتقطعة أكثر إزعاجًا من الضوضاء المستمرة المتصلة والتي كثيرًا ما يعتاد العامل عليها ويتحملها . ولكن هذا الأثر النفسي هو الذي تخف حدته فقط أما الآثار البيولوجية كارتفاع ضغط الدم ، فتحدث كما هي ، من ذلك الشعور بالتعب والإرهاق ومعنى ذلك أن الضوضاء العالية ضارة حتى وإن لم نهتم بها ، يضاف إلى ذلك أن وجود الضوضاء العالية يعوق عملية الاتصال بين العامل وغيره من الزملاء Communication

ويضطر العامل لرفع صوته أزيد من اللازم إلى جانب الصعوبة في فقدان توصيل المعلومات الهامة ، وتتصل الضوضاء بمعدلات الإنتاج وبمدى وجود الأخطاء في عمل العامل وتعوق كفاءته الإنتاجية . **(Schultz, D. and others, 1995: 319)**

كذلك يتأثر الإنسان بالحرارة الزائدة ، وبزيادة معدلات الرطوبة Temperature and humidity وخاصة أثرها على الروح المعنوية للعمال Morale وعلى الكفاءة الإنتاجية ، وعلى الوضع الفيزيقي . ومن سوء حظ هذا العصر أن الظروف المناخية الطبيعية قد تغيرت إلى ما هو أسوأ وزاد أثرها السلبي على الأعمال الذهنية من ذلك زيادة درجة الحرارة والبرودة وتقلبات الجو ، والحقيقة أن الظروف البيئية السيئة قد تؤدى إلى الإصابة بهذه الأمراض:

1) سرطان الرئة Lunge cancer .
2) سرطان الدم .
3) مرض الرئة البيضاء .
4) سرطان الكلى .
5) السل الرئوي .
6) تدمير في بعض خلايا الجهاز العصبي المركزي .
7) العجز عن الولادة .
8) العقم .
9) سرطان الغدة الدرقية .
10) سرطان العظام .
11) الإجهاض Abortion .
12) الإصابات الولادية .
13) سرطان الكبد .
14) سرطان المخ .

(Schultz, D. and others, 1995: 341)

وبعد الإشارة إلى الأخطار الصحية الجسمية التي تنجم عن تلوث بيئة الإنسان نتحول إلى بيان:

دور الوعي الإسلامي في الحفاظ على البيئة وعلى حياة الإنسان وكافة الكائنات:

يحثنا القرآن الكريم على عدم الاعتداء إطلاقًا بما في ذلك الاعتداء على مظاهر البيئة ، وعدم إفسادها لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ **(الأعراف / 55)** .

وفي بيان فضل الماء أن جعل الله كل شئ حي بها ، ولذلك على الإنسان أن يحافظ على

مصادر المياه نقية نظيفة كى يستفيد هو منها وبقية الكائنات الحية التي تشاركه الحياة فوق هذا الكوكب كما في قوله تعالى:

﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (الأعراف / 57) .

فالماء مصدر الحياة وعلى الإنسان أن يحافظ على خلق الله تعالى وأن يحافظ على حفظ التوازن البيئي ويبقى البيئة متوازنة بكافة عناصرها الطبيعية ولا يدفعه الجشع فيفسدها ، اهتداءً بقوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ (الرحمن / 7- 8) .

ومصدر الاهتمام بالبيئة أنها المحيط الذي يعيش فيه الإنسان وغيره من الكائنات الحية: من حيوان ونبات وأسماك وطيور . والبيئة هي المرجع الذي يعود إليه الإنسان (يبؤ) . وهي "الحضانة" التي يتربى فيها الإنسان ويترعرع منذ الصغر أو هي "الرحم" الذي ينمو فيه الغنى والفقير على حد سواء ، فلماذا يعتدي عليها الإنسان؟

سواء البيئة الطبيعية التي خلقها الله تعالى كالجبال والبحار والمحيطات والأرض والسماء ، أو البيئة التي هي من صنع الإنسان كالمباني والمصانع والمنازل وغيرها . والبيئة الطبيعية مهيأة لمصلحة الإنسان ، ولخدمة الإنسان ولحياة الإنسان ، ولذلك من المستغرب أن يقتل الإنسان بنفسه مصادر رزقه ، ومحل إقامته ، ويملأه بالسموم والغازات والأتربة والأدخنة والغبار والحشرات والجراثيم والإشعاعات والأحماض والعوادم والمواد السامة السائلة والصلبة . والإنسان كلفه الله تعالى «بعمارة الأرض لا بتخريبها أو تدميرها أو تحطيمها أو الاعتداء عليها أو إصابتها بالتصحر والفقر والمرض ، كما في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ (الحجر / 20) .

هذه النعمة الإلهية العظيمة يسيء إليها الإنسان بنفسه ، ويعتدي عليها ويناصبها العداء . ومن الغريب أن الدول الغنية هي أكثر الدول اعتداء على سلامة البيئة وأكثرها إهمالاً لها . وأمد الله تعالى الأرض بكل أسباب الحياة السعيدة ، ولكن الإنسان ، وهو الملوث الأول للبيئة ، يعتدي عليها ، وعلى مجارى المياه النقية ، فالله تعالى يعلمنا القيمة العظيمة للمياه في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء / 30) .

وتهبط المياه طاهرة نظيفة ، والإنسان هو الذي يلوثها ، كما في قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان / 48- 49) .

فالله تعالى رءوف بعباده ، أنزل لهم الماء من السماء في شكل هطول الأمطار ، وكذلك سخر لهم الأنهار تجرى فيها المياه العذبة كما في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ (إبراهيم / 32) .

كما أن الله تعالى سخر للإنسان ، وهو أغلى ما يوجد من كائنات ، الشمس والقمر والكواكب للإنسان ، لقوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم / 33) .

ومن حكمة الخالق العظيم أن جميع عناصر البيئة من الأرض والسماء والجبال والأنهار والمحيطات والأشجار والشمس والقمر ، كلها تتفاعل مع بعضها بعضًا ويؤثر كل منها ويتأثر بالآخر وتقوم بينها جميعًا وبين الإنسان علاقة تفاعل أيضًا وأخذ وعطاء أو تأثير متبادل ، ولكن هذا التأثير في وضعه الطبيعي يجب أن يكون تأثيرًا إيجابيًا ، بحيث يستفيد الإنسان من البيئة ومن خيراتها وفي نفس الوقت يفيد البيئة بتنميتها وتحسينها وتجميلها والمحافظة عليها من المفاسد والاعتداءات والأخطار ، كما في قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس / 5) .

والمفروض أن يجد الإنسان في الأرض حياة الهدوء والاستقرار والأمن والأمان لا الموت والفزع والدمار الشامل لقوله تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الأعراف / 24) .

وجعلها الله تعالى ذلولاً للإنسان ومهادًا لقوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ (نوح / 19) .

ويهدينا إسلامنا الحنيف إلى الاستفادة من خيرات الأرض لقوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (النازعات / 30 – 33) .

والله تعالى سخر كل ما في الأرض وكل ما في السماء لخدمة الإنسان وسعادته كما في قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل ﴾ (الجاثية / 12 – 13) .

تتعاون وتتكامل قوى الطبيعة من سماء وأرض وماء لخدمة الإنسان ، ولكنه ، بيده ، يحولها إلى جحيم قاتل له ولسائر الكائنات الأخرى ويأتي الإنسان الحديث فيتدخل في هذا التوازن الإلهي ويفسده بيده .

والدور المنوط بالإنسان حيال البيئة هو دور إيجابي نافع لقوله تعالى:

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة / 30) .

ومؤدى ذلك نشر الخير والعدل والصلاح والتعمير والنماء وليس التخريب أو التدمير أو الاستنزاف والقتل وبث السموم والغازات والجراثيم . وعلاقة الإنسان بالبيئة هي عبادة الله تعالى وخلافته في الأرض وتعميرها أي غرسها وزرعها والبناء فيها والبعد عن إفسادها أو إخلال توازنها .

والمحافظة على البيئة ضرب من ضروب السلوك الأخلاقي والإيجابي والبناء ، وفيه يتحقق الصالح العام والنفع العام ، وكذلك الصالح الفردي أو الشخصي ، وفي هذا الصدد يقول رسولنا الكريم ﷺ « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه الإمام البخاري .

ولذلك ينادى كثير من الكتاب بضرورة تنمية الضمير البيئي ، ونشر الوعي البيئي والاهتمام بالتربية البيئية ، ومن بينهم كاتب هذه السطور . والمفروض أن تتسم علاقة الإنسان بالبيئة بالتصالح والود والحب والإقبال وليس العداء أو الخصام أو الجهل والطمع . وجعل الله البيئة أو الطبيعة مادة خصبة لتفكير الإنسان وتأمله في خلق الله بحيث يهتدي من المخلوق إلى الخالق العظيم وفي هذه المعنى البليغ يقول أحد الشعراء:

تأمل سطور الكائنات ، فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت سطرها ... ألا كل شئ ما خلق الله باطل

(القرضاوي ، يوسف ، 2001: ص 31)

ضرورة تغيير الاتجاهات العقلية نحو البيئة:

وتغيير اتجاه الناس نحو الكون أصبح أمرًا مطلوبًا في هذه الأيام ، تغييره من السلبية والاعتداء والاستغلال السيئ والتدمير والتحطيم والإساءة إلى المودة والمحبة والاحترام والاعتراف بفضله على الإنسان وأنه نعمة من نعم الله علينا وهو بكل ما فيه من خيرات وجمال مسخر لخدمة الإنسان وسعادته كما في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية / 13) .

وإنسان اليوم ليس مطالبًا بحماية البيئة وحسب ، ولكنه أيضًا مطالب أن يعمل على تحسينها وتجميلها ، وعليه أن ينمي في حسه تذوقها ، والإحساس بجمالها اهتداء بقوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف / 31 – 32) .

وعلى المؤسسات التربوية والإعلامية ورجال الوعظ والإرشاد تقع مسئولية تعديل اتجاهات الناس نحو البيئة وتربيتهم منذ الصغر على حب البيئة والمحافظة عليها وحمايتها من التلوث ومن التدمير . وفي الدعوة للمحافظة على البحار والشعور بأهميتها للإنسان كما في قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل / 14) .

فالله جميل يحب الجمال مما يتعين أن نراه في الحدائق والبساتين والمتنزهات وفي الشوارع والحقول وفي البحار والمحيطات كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك / 5) .

والإسلام يحمي أبناءه من كافة الأضرار التي يحتمل أن تقع عليهم من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء / 29) .

وقوله تعالى:

﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة / 195) .

وكما تقول القاعدة الفقهية العظيمة التي يعبر عنها الإمام القرضاوي "درء المفاسد أولى من جلب المنافع" (ص 40) . ولقد أصبحت البيئة اليوم "كالرجل المريض" والذي يلزم علاجه ثم الوقاية من الإساءات والاعتداءات الجديدة . ولا شك أن محافظة الإنسان على بيئته معناها المحافظة على ذاته ، فحفظ البيئة فيه حفظ النفس ، فليس من باب الترف العلمي أن نهتم بالبيئة ، ولكن المسألة أصبحت مسألة حياة أو موت بل موت كافة الكائنات الحية التي تشاركنا الحياة فوق هذا الكوكب . فالجنس البشرى قد ينقرض إذا استمر في نشر السموم في بيئته كما في قوله تعالى:

﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة / 32) .

والبيئة هي المكان المشترك الذي يعيش فيه الغنى والفقير . والمفروض أن يفرض العالم عقوبات رادعة وحاسمة على الدول التي تسيء إلى البيئة وتلوثها وتفسدها وترفض الانصياع للاتفاقيات الدولية الداعية للمحافظة على البيئة . ولا يمكن أن يسيء على البيئة العقلاء منا كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (النساء / 5) .

واهتداء بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ (الأعراف / 56) .

ولقد اهتم القرآن الكريم بالبيئة ، ومن ذلك نزول سور كريمة تحمل أسماء الحيوانات مثل سورة البقرة وسورة الأنعام وسورة الفيل وسورة النحل وسورة العاديات وهي الخيول وسورة النمل والعنكبوت . وهناك سور قرآنية كريمة تحمل أسماء الفاكهة أو تشير إليها كالأعناب والتين والزيتون ، وسورة الحديد وسورة الرعد وسورة الذاريات وهي نوع من الرياح ، وسورة النجم ، وسورة الفجر والشمس والليل والضحى والعصر وكلها من الظواهر الطبيعية والتي اهتم بها القرآن الكريم بل إن الله تعالى يقسم بها في بعض الآيات القرآنية الكريمة .

وقصارى القول فإن إصلاح البيئة يكمن في إصلاح أخلاق الإنسان المعاصر وإيقاظ ضميره ووعيه .

المراجع:

1) القرآن الكريم .

2) صحيح الإمام مسلم .

3) صحيح الإمام البخاري .

4) صحيح الإمام الترمذي .

5) عبد الباقي ، محمد فؤاد ، (1981) ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الفكر ، لبنان ، بيروت .

6) الجزائري ، أبو بكر جابر ، (1964) ، منهاج المسلم ، مكتبة الدعوة ، القاهرة .

7) القرضاوي ، الإمام يوسف ، (2001) ، رعاية البيئة في الشريعة الإسلامية ، دار الشروق ، القاهرة .

8) طه ، فرج عبد القادر وآخرون ، (1994) ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، دار سعاد الصباح ، القاهرة والكويت .

9) Schultz, D. and others, (1995), Psychology and Work Today, Prentice Hall, New Jersey.

10) Scully, J.H. and others, (1992), Psychiatry, Herbal Publishing Co., Media, Pennsylvania.